دم الشهيد إذا سقط

«لهم في الموت فلسفة»، يقول الشاعر. يبدو أن حزب الله أبدع في هذه الفلسفة - الشهادة. سابقاً كانت لديه مهمّة استقطاب الناس، أمّا اليوم، فيبدو أن هذه القاعدة انقلبت تماماً. الناس على أبوابه يزدحمون بانتظار دورهم، فرصتهم، للالتحاق بمن سبق. الضاحية الجنوبية لبيروت، هذه الأيام، بركان من عاطفة وشراسة وتسليم وغضب

محمد نزّال

ذات ليلة، من أيّار قبل عامين، كان حسن يرتشف قهوته المعتادة في مقهى «الجزيرة». مقهى شعبي، صغير، في الضاحية الجنوبية لبيروت. فجأة تغيّرت ملامح الشاب العشريني، وهو يقرأ رسالة نصيّة وصلته على هاتفه الخلويّ. رسالة من صديق عن صديق، بكلمات مقتضبة:

> **لو أراد حزب الله قبول الجميع لتضاعف عديده في ليلة واحدة**

«عظّم الله أجرك استشهد (فلان)». رسالة أخرى تصله، من صديق آخر، عن لائحة بأسماء الشهداء الذين ارتفعوا قبل ساعات قليلة. كان هؤلاء ضمن مجموعة لـ«حزب الله» وقعت في كمين وسط مدينة القصير السوريّة. راحت الرسالة ذاتها تنتقل من شخص إلى آخر، داخل المقهى وفي الخارج، تطير من هاتف إلى آخر على مساحة الضاحية بين مئات آلاف القاطنين. جوّ من الرهبة سيطر على وجوه الناس. تلك ليلة كثيرون لن ينسوها.

ترك حسن المقهى وأسرع نحو مستشفى «الرسول الأعظم» عند طريق المطار. إلى هناك كانت تُنقل بعض جثامين الشهداء والجرحى. لحسن صديق جريح، يُريد أن يراه، أن يتبرّع له بالدم، لو احتاج. لم يُسمح له بالدخول. هاج الشاب في الخارج، لم يستطع الجلوس، فظلّ واقفاً على جانب عشرات الشبّان الذين بعد نحو ساعة، أصبحوا بالمئات. حسن ليس حزبيّاً. هو ضمن بيئة حزب الله، وابن الضاحية، لكنه غير منخرط في التنظيم. أكثر الشبّان الذين كانوا واقفين، تلك الليلة، عند باب المستشفى، ونار الحماسة تقدح في عيونهم، كانوا مثل حسن... مجرّد مؤيّدين. كثيرون منهم أصبحوا اليوم ضمن صفوف «التعبئة» في حزب الله. جيل بحاله انضم إلى الحزب خلال الأعوام القليلة الماضية، ومنهم من سقطوا شهداء.

يجلس حسن هذه الأيام في المقهى وصورة وحيد، الشاب الذي التحق متأخراً بالحزب واستشهد، معلقة قبالته. الشهيد كان من روّاد المقهى أيضاً. ثمّة حالة وجدانية يبثّها هؤلاء الشهداء الجدد، في ذاك المقهى، في أكثر من مقهى، في كل منطقة وحي وشارع على مدى الضاحية الكبيرة. الكلّ يريد «أن يُشارك في القتال، في الدفاع عن الحزب، عن الخط والنهج، عن الأهل والعرض والنفس». هكذا يتحدّث جواد. الشاب، الذي لم يكمل العشرين بعد، والذي لا يزال ينتظر الإجراءات المعقدة عند «حزب الله» لقبوله. يقول هؤلاء الشبّان إن الحزب، لو أراد قبول الجميع، لتضاعف عديده في ليلة واحدة، ولكن الاجراءات العقائدية - الأمنية - السلوكية تعيق قبول كل من يطرق الباب. لا بد من دورات ثقافية وتربوية يخضعون لها قبل التحاقهم بـ«العسكر».

الذين يعيشون في الضاحية سيلحظون أن المساجد، هذه الأيام، أصبحت عامرة بالشبّان أكثر من ذي قبل. تسمع هناك عن شبّان كثر يردّهم الحزب، يمنعهم من الالتحاق به عسكرياً، لاعتبارات عائلية أحياناً (الوحيد لأمّه وأبيه) أو لصغر السن، أو غير ذلك. لأحد المسؤولين المحليين في الحزب كلمة تلخّص هذه المسألة: «هناك تخمة لدينا في العديد. الوافدون الجدد أكثر مما تتصور. أحياناً يأتي الأب لينضم مصطحباً معه ابنه الشاب». يُحدّثنا المسؤول عن مصطفى، الوالد الجريح، الذي يلازم فراشه منذ أشهر، بعد إصابة تعرّض لها في سوريا، بينما ابنه الآن على جبهات القتال ولا يراه في الشهر

الدماء الأولى كالشتوة الأولى

منذ البدايات، شكلت مراسم تشييع الشهداء اللحظة التي يتخذ فيها الشباب قرارهم بالتحوّل إلى العمل المقاوم. الشهداء الأوائل الذين «قاوموا المخرز» عبّدوا الطريق، ولم يموتوا في ذاكرة أجيال تسير على خطاهم

داني الأمين

لا شيء يمكن أن يطغى على الإحساس بالتقصير أمام ما يقدّمه الشهداء من أعمال يحلم في تحقيقها السائرون خلف نعوشهم. وكأنهم يشاهدون فيلماً أميركياً، أبطاله حقيقيون من أعداء أميركا نفسها، يرفعون شعار «الموت لأميركا، والموت لاسرائيل». يقول محمد (37 سنة) «كم هي مفيدة هذه الأفلام لأنها تجعلنا نسخر من أبطالها وأمامنا مشاهد مماثلة وحقيقية تحصل على أراضينا، بأيادي رفاقنا وأقربائنا». يؤكد محمد أن أول لحظة شجعته على التفرغ للعمل العسكري المقاوم، قبل عشرين سنة كانت «لحظة تشييع شهيد عزيز في بلدتي، شهيد لم أكن أتصوّر ما يفعله في غفلة من أقربائه ومحبيه على الجبهة مع اسرائيل». أخبار البطولات هذه كانت «تدخل صميم القلب وتنبض مع نبضاته وكأنها تضخُّ في أجسادنا دماءً جديدة تغيّر طريقة تفكيرنا وتجعلنا أكثر جرأة وشجاعة، وتوجهنا طوعاً للالتحاق بأول دورة عسكرية، سرعان ما تحولنا الى أبطال بدورنا».

يعي محمد والعديد من رفاقه أن ما وصلت إليه المقاومة من انتصارات خلال أكثر من عشرين سنة من العمل سهّل عليهم كثيراً متابعة المسيرة، «فلم يعد العمل العسكري صعباً جداً على الشباب الجدد، بعدما جرى تأمين وسائل كثيرة تمهد للعمل العسكري، عدا عن الدعم المعنوي الذي يحصل عليه المقاومون من محيطهم الاجتماعي». في الماضي القريب كان العمل المقاوم لأمثال شهيد القنيطرة، محمد عيسى (أبو عيسى)، أمراً محظوراً حتى في مجتمعه الصغير في بداية الثمانينيات، في زمن آمن فيه الناس أن العين لا تقاوم المخرز، «وكان سقوط الشهداء الأوائل مثل الشتوة الأولى».

لم تتغير دماء الشهداء، بل ازداد حجمها. ولم يتغيّر التشييع بل ازداد عدد المشيعين، ومعهم تزداد أعداد المقاتلين المقاومين، لكن للقديم عنفوانه المختلف وآثاره المختلفة. يفسّر المقاوم المخضرم الحاج يوسف كلام محمد: «منذ بداية العمل المقاوم كان لتشييع الشهداء وقعاً مختلفاً في نفوس الأهالي، الذين كانوا لا يزالون نائمين في سبات الهزائم العربية المتتالية». يذكر كيف كان شقيقه يتسلل ليلاً من نافذة المنزل ويعود فجراً، كي لا يعلم أهله بعمله المقاوم، لأنهم حتماً سيواجهونه ويحاولون منعه من حمل السلاح، خوفاً عليه، واقتناعاً منهم بأن في الأمر مجازفة قد تحرق البلدة بكاملها، وقتها «كان على الأخ أن يؤمّن قوت أخيه من عمل آخر، كما عليه أن يخفي سرّاً كبيراً وإلا حصلت كارثة».

ويذكر أحمد (45 سنة) كيف خرق جدار الهزيمة، نبأ استشهاد الشهيد أمثل حكيم بعد عملية نفذها مع رفاقه في صيف عام 1985 في محيط بلدته شقرا أدّت الى مقتل 13 جندياً اسرائيلياً. يومها تغيّر المشهد عند الأهالي، أو بدأ يتغير على الأقل، «هناك أبطال